المحاضرة (05)

النقد النفسي:

تعرّض تطبيقُ التحليلِ النفسي في دراسة وتحليل الفنون والأدب لمعارضة شديدة بحجّة أنّ الموضوع الأنسبَ بهذا الفرعِ من علم النفس هو تشخيص وعلاج الأمراض النفسية وليس الأعمال الفنية والأدبية، على اعتبار أنه لا يصحُّ التعامُلُ مع المُبدعين انطلاقا من أنهم جميعا نماذج شاذة وغير سوية، غير أنّ الأدب وعلم النفس يسيران في خطّ واحد، فـ"الحديث عن أركان الأدب (الأديب – العمل الأدبي – القارئ) يقضي بالضرورة إلى الحديث عن الحالات النفسية والوجدانية لدى المبدع والقارئ"[1]، ليتأسّس انطلاقا من هذه العلاقةِ الوطيدة النقدُ النفسي كنظريةٍ قائمةٍ مطلعَ القرن 20 على يد الطبيب النفساني "سيغموند فرويد" (1939)"Sigmund Freud"*، رغم ظهورهِ في البداية كمنهج علاجي للأمراض النفسية، أفادَ كثيرا علمَ الأساطيرِ والدين والإبداع الفني والأدبي بأنواعه.

تأسُّسهُ كنظرية مُتكاملة ارتكزَ على معطياتِ اتجاهٍ نقدي أدبي، كان له دورٌ أساسي في كشفِ وتحليلِ بعض الأعمالِ الأدبية الخالدة، بتقديمه مفاهيم جديدة تُلقي الضوءَ على عملية الإبداع الأدبي من زاويةٍ نفسيةٍ، التي من أهمها اعتبار "العبقرية انفعالات ذكية منظمة يتميز صاحبها بقدرة أكبر على عمليات التركيب والتحليل والربط والتنظيم عن بقية الناس"[2]، في محاولة لتوضيحِ الأثر الذي يعكسه المبدعُ كذاتٍ في نصّه.

1. سيغموند فرويد وجهاز التحليل النفسي:

يبحث علم النفس عنده في الحياة العقلية، انطلاقا من منطقة اللا شعور أو العقل الباطن، بصفته الخزان الذي يدّخر عديد التجارب العقلية، من هذه التجارب نجدُ مثلا: الرغبات التي لم تتحقّق والمخاوف التي تهزّ كيانات النفس وقيود الحياة الاجتماعية والآمال غير المتحقّقة التي تنحدِرُ إلى أعماق النفس، بحيث لا يمكن استدعاؤها من منطقة اللا شعور إلى منطقة الشعور من أجل حلّ العقدة النفسية إلاّ باستخدام وسائل غير عادية كالتنويم المغناطيسي في تحليل حالات الذهول والغيبوبة تحليلا نفسيا، إضافة إلى الاضطرابات العقلية العصبية والأحلام والكبت الجنسي، باعتبار هذه "الحالات الشاذة تُخرِجُ الرغبات المكبوتة والأفكار الدفينة السارية في منطقة اللا شعور إلى منطقة الشعور"[3]، فالمُنطلقُ الأول الذي أرسى "فرويد" دعائمه عليه هو ربطُ الصلة بين الأعراض الهستيرية وتجارب الحياة الخاصة للمريض، بما في ذلك بعض الحالات الوجدانية

المُحبطة التي لا تجد طريقها إلى صرف طاقتها إلاّ في أعراضِ المرض النفسي، انطلاقا من تطويره نظرية في الأحلام، لها دعائم في النقد التحليلي النفسي، وما اتصل بها من تأملات في الإبداع الفني والأدبي، مرورا إلى الاهتمام بالعوامل الجنسية، لِما لها من دورٍ مركزي في ظهور الأمراض النفسية، حيث استبدل مفهوم الانفعالات الوجدانية بالخبرات الجنسية سواء الطفولية أو المتأخرة، ليصل إلى أن أغلبية أنماط العُصاب تعود أسبابها إما إلى خبرات جنسية تتصل بماضي حياة المريض من مرحلة الطفولة، أو تعود إلى اضطرابات الحياة الجنسية في الحاضر، دون أن يستبعد وجود تغيرات كيميائية مصاحبة للتحول الذي يطرأ على تلك الخبرات، لتُصبح أعراضا مرضية[4]، فأساسُ السلوك البشري عنده هو اللا شعور ومخزوناته من الدوافع المكبوتة في مرحلة الطفولة، التي تتميز بالنمو والانفعالات والاضطرابات المُحدّدة لسمات الشخصية، كالصراع الكائن بين الرغبات المكبوتة الجامحة التي تصبو إلى التحقق في الواقع و بين القيم الاجتماعية والتربوية والخُلقية، "غير أنّ طاقة الرغبة تبقى محتبسة في الذات، وبذلك تتولد سيرورة الكبت التي تعمل على بقائها هكذا دون تصريف"[5]، فالأنا يصُدّها ويمنعها؛ لأنها لا تتلائم مع مبدأ الواقع، مثال ذلك عقدة أوديب التي تتجلى عند الطفل الذكر الذي يدخلُ في علاقةٍ عاطفية مع أمه، لدرجةٍ يشعرُ فيها بضغينة أساسُها الغيرة نحو مثيلهِ الجنسي، وعقدة إلكترا التي تتجلى عند الطفلة الأنثى التي تدخل في علاقة عاطفية مع أبيها، لدرجة تشعر فيها بضغينة أساسها الغيرة نحو مثيلتها الجنسية، شرط أن يكبِت الطفل في الحالتين معا سواء: ذكر أو أنثى ضغينتَهُ وحبَّه في جنسٍ مُخالف لجنسهِ، والسببُ أنّ القيّم الاجتماعية تمنع الإعلان عن هذه المشاعرالتي قد تُهدّد موقع الأبوين في الأسرة، كما قد تهدّد صورتهما الاجتماعية كذلك.

انطلاقا مما ذُكر سابقا نستطيعُ الجزمَ –وفق هذه الرؤية التحليلية– أنّ ما يدفعُ المبدعين للإنتاج الفني والأدبي هي مجموعُ "الرغباتِ الحبيسة والنزعات الباطنية المكبوتة التي تؤثر في الحياة الشعورية تأثيرا لا يشعر به الإنسان كما يرى فرويد؛ لأن العقل الباطن ليس خامدا عاطلا، ولكنه يقظ فعّال يؤثر في حياة الإنسان العقلية على غيرِ شعور منه"[6]، في منطقة يسميها اللا شعور Inconscient، الذي بدوره يشيرُ إلى تلك المنطقة الغامضة الواقعة في أغوار النفس، حيث "تلجأ تلك الرغبات المكبوتة وتبقى هناك قابعة تتحيّن الفرصة السانحة للتعبير عن نفسها في تجلّيات

مُحوّلة، وما العُصاب إلاّ الإعلان التحويلي للرغبات المُحبطة"[7]، كالأحلام والأمراض النفسية وزلات اللسان وأحلام اليقظة.

فميدانا الأدب والفن يعتبران المظهر المقبول لتَحوُّلِ الغرائز، لما يعملانه معا على إعادة التوازن إلى الشخصية، بتصريف الطاقة الغريزية ذات الصلة في مجالات إيجابية مُنتجة، يقول فرويد: "ومما لا شك فيه أن الروابط بين أحلامنا النمطية وبين قصص الأطفال وغيرها من مؤلفات الخيال ليست بالقليلة ولا بالعارضة، ويتفق أحيانا أن يتسنى لفنان خالقٍ نافذ البصيرة معرفةٌ تحليلية لعملية التحول التي لا يكون الفنان عادة سوى مطيّتها، فإذا هو –وقد تتبّع تلك العملية في الاتجاه المعاكس– يرد الأثر الفني إلى الحلم"[8]، لذلك فإن الإبداع الفني والأدبي في جوهره صورة مُحوّلة عن الدوافع المكبوتة في اللا شعور، بصفتهما شواهد على مرض صاحبها النفسي وشذوذها، لما تتضمنه من عُقدٍ وطباع وتأويلات باطنية، ليُطرح السؤال الآتي: إذا كان الأديب عصابيا، فكيف يفهمه الآخرون؟ وهل مرض الأديب النفسي هو الذي يجعلُ منه مبدعا متميزا؟ وإذا شُفي من مرضه النفسي وعُصابه هل يعود مُبدعا متميزا كما كان؟

الفكرة المتبلورة منذ بداية اهتمام التحليل النفسي بالأدب تقولُ بعدمِ وجود إنتاج أدبي دون تدخل اللا وعي في صياغته وبلورته؛ لأن المبد كالمريض العصبي ينسحب من الواقع الذي لا يبعث على الرضى إلى ذلك العالم الخيالي، والفرق بينه وبين المريض العصابي هو بقاؤه وطيد العزم على نهج طريق العودة إلى الواقع، وما إبداعه إلاّ تلبية خيالية لرغبات لا شعورية تحاول تحاشي الصراع المكشوف مع قوى الكبت.

ومما لا شك فيه أنّ "فرويد" قد أنار جانبا مظلما في الإنسان يتصلُ بالحياة النفسية؛ لأن كشفه عن اللا شعور (اللا وعي / العقل الباطن) يعدّ في حدّ ذاته إنجازا هاما على الرغم من الانتقادات الحادة التي واجهته في نظريته النفسية أو في تفسيراته للأدب وعملية الإبداع.

ليكمل من بعده هذه الجهودات البحثية تلميذهُ "ألفريد آدلر" "Alfred Adler" (1937)، حينما تحدّث عن الاستجابة للا شعور الجمعي؛ لأنه كما يرى عكس أستاذه فرويد أن محتويات اللا شعور لا تنشأ في مرحلة الطفولة المتصلة بالنوع الإنساني، بل تنتقل مع الأجيال في البنية الذهنية للأفراد، باعتبارها "صور ابتدائية لا شعورية، أو رواسب نفسية لتجارب ابتدائية لا شعورية لا تحصى، شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية، وقد ورِثَت في أنسجة الدماغ بطريقة ما، فهي إذن نماذج أساسية

قديمة لتجربة إنسانية مركزية"[9]، عكس ما تحدث عنه فرويد، حين أكّد على التماثل الحاصل بين الأفراد، باعتبارهم يمرون في طفولتهم بمراحل كبت متماثلة، خاصة في الست سنوات الأولى من مرحلة الطفولة.

2. جاك لاكان وبنية اللا شعور اللغوية:

انطلاقا من الأسُسِ والمبادئ التي وضعها فرويد في نظرية التحليل النفسي، بدأ "لاكان" مشروعه النقدي، فهو يقوم كثيرا على اللغة والكلام لفهم طبيعة اللا شعور عند المرضى وعند دراسة المؤلفين والمبدعين أمثال دوستويفسكي وليوناردو دافنشي، حيث لاحظ أنّ جميع التصورات التي صاغ منها فرويد جهازه المفاهيمي في التحليل النفسي وبنيته اللا شعورية، ليُدرك "لاكان" انطلاقا من مبادئ "فرويد" أهمية اللغة؛ لأنها تُجسّدُ الصراع الدائر بين الأنا والمجتمع، "وبحكم أنّ اللغة قائمة قبل الأفراد، فإنها تفرضُ عليهم سلطانها"[10]، وتمتلكهم وتمارس عليهم التعذيب.

اهتمام لاكان كان منصبّا على الأدب، وتجلى ذلك في ربط علاقة خاصة بين اللغة والجانب اللا شعوري للإنسان، وكان صاحب الفضل في ذلك كلود ليفي شتراوش من خلال اشتغاله بالبنية اللغوية وعلاقتها بالتفكير والسلوك لدى الشعوب البدائية، فيما يسمى بالأنثروبولوجيا البنيوية، حيث رأى "لاكان" أن اللا شعور ليس سوى بنية لغوية؛ لأن الرغبات الإنسانية لا يمكن أن تعبّر عن نفسها من خلال دوال ظاهرة، بل في خطابٍ إبداعي، باعتباره خطابٌ واهمٌ يعبّرُ عن رغبةٍ دفينة بأسلوب رمزي.

اللغةُ من هذه الزاوية "تتحدثُ من خلال قصديَّتنا عن قصديّتها الخاصة التي تتجاوز إمكانياته التدليلية قصديتَنا المُرتبطة بلحظة الكتابة أو الكلام"[11]، ليبني "لاكان" انطلاقا من هذا التصور مفهومه حول الذات والهوية والآخر، فاللا شعور قائم عنده بسبب خطاب الآخر؛ لأنه منذ مرحلة الطفولة الأولى يبدأ الآخر في تهيئة نفسه في ذوات الأفراد من خلال اللغة، وليس الشعور هنا إلاّ ما يتلقاه الفرد من خطابات لغوية في الأسرة أولا وفي المجتمع ثانيا، ليكون الأنا الأعلى ذلك الموقع الرمزي للضوابط والقوانين والأخلاق، أما الأنا فهو مجال بناء جميع الأوهام التي نُشيّدها حول ذواتنا.

فالرغبات الإنسانية الفعلية لا تُعبّر عن نفسها إلاّ من خلال الدوال الظاهرة المُتجلّية في اللغة، خاصة النصوص الإبداعية، بكل ما تحمِله من مضامين لا شعورية وصور دالة على الوضع السيكولوجي، فهي تحرّك المبدع في اتجاه بناء مشروعه الأدبي، ليشعُر بالارتياح الناجم عن تصريف الطاقة الغريزية.

لتُركز نظريته السيكولوجية في الإبداع على الدلالات الباطنة في العمل الأدبي والفني الذي قد يتأثر بالعقل الباطن عند المبدع أكثر من تأثره بعقله الواعي، لنصل إلى أن النظرية النقدية النفسية عامة بتنوّع مُنظّريها تعتبر الأعمال الأدبية والفنية تعبيرا مباشرا عن شخصية المبدعِ، لأنها تتّخذُ من العمل الأدبي والفني وسيلة للكشف عن هذه الشخصية وإلقاء الأضواء على معالمها المختلفة وأغوارها الدّفينة.

هوامش المحاضرة:

1. شكري عزيز الماضي: محاضرات في نظرية الأدب، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1984، ص105.

* سيغموند فرويد طبيب نمساوي، كان مُنظّرا وممارسا للعلاج النفسي، كما كان لاكتشافاته الخاصة بالجهاز النفسي دور كبير في إعادة النظر جذريا في تصور مفهوم الذات ومفهوم الشخصية الفردية.

2. المرجع نفسه، ص105.
3. المرجع نفسه، ص108.
4. سيغموند فرويد: حياتي والتحليل النفسي، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1961، ص 37.
5. المرجع نفسه، ص40.
6. المرجع نفسه، ص109.
7. حميد لحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مطبعة آنفو، فاس، المغرب، ط2، 2012، ص89.
8. سيغموند فرويد: تفسير الأحلام، تر: مصطفى صفوان، دار المعارف، مصر، ط2، 1969، ص263.
9. شكري عزيز الماضي: محاضرات في نظرية الأدب، مرجع سابق، ص120.
10. حميد لحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مرجع سابق، ص112.
11. المرجع نفسه، ص116.

المحاضرة (06)